ولاة مصر في عهد العرب

اشرنا في الكلام على كتاب قضاة مصر ان الكندي مؤلف هذا الكتاب خص قسماً كبيراً منهُ بولاتها واسند كل ما ذكرهُ فيهِ الى الرواة الذين نقل عنهم اسناداً متسلسلاً . ومن العلماء الاوربيين من يذهب الى انهُ لا يلزم ان يكون ذلك النقل بالسماع بل قد يكون عما كتبهُ المنقول عنهُ فاذا قيل اخبرني زيد عن عمرو فيحتمل ان يكون المعنى قرأت ما كتبهُ زيد نقلاً عما كتبهُ عمرو . ويظهر لنا ان هذا الاحتمال بعيد جداً ولاسيما في ما نقل عن رواة القرن الاول لان الكتابة في عصرهم كانت نادرة ولانهم كانوا يثقون بالسماع اكثر مما يثقون بالكتابة فقد جاء في ترجمة القاضي بكار بن قتيبة الذي ولي قضاء مصر سنة ٢٤٦ انهُ لما رأى مختصر المزني وما فيهِ من الرد على ابي حنيفة شرع هو في الرد على الشافعي فقال لشاهدين من شهودهِ اذهبا الى المزني فقولا لهُ أسمعت الشافعي يقول ما في هذا الكتاب . فمضيا وسمعا المختصر كلهُ من المزني وسألاهُ أسمعت الشافعي يقول هذا قال نعم . فعادا الى بكار فاخبراهُ بذلك فقال الآن استقام لنا ان نقول قال الشافعي ثم صنَّف الرد المذكور

وواضح من ذلك انهُ حتى اواسط القرن الثالث كان المؤلفون يثقون بالمسموع اكثر مما يثقون بالمكتوب اما خوفاً من ان يكون المكتوب مزوراً او هرباً من قراءة كتابة غير مقيدة بالنقط والشكل او اعتماداً على ان الحق لا يثبت الاَّ بشهادة شاهدين وكيفما كانت الحال فما كتبهُ الكندي في كتابهِ عن الولاة والقضاة يصح الاعتماد عليهِ لحقائق مقررة ولاسيما في ما يستدلُّ منهُ على اخلاق الولاة والقضاة وعلى كيفية تولّد اصول الولاية والقضاء وتدرُّجها كما اتينا في الخلاصة التي نشرناها من اخبار القضاة واعمالهم . وقد رأينا ان نورد خلاصة مثلها من اخبار الولاة واعمالهم

عمرو بن العاص

هو اول والٍ ولي مصر وقد نقل الكندي خبراً رفعهُ الى حنش بن عبد الله الصنعاني المتوفى سنة ١٠٠ للهجرة ان عمرو بن العاص كان تاجراً في الجاهلية وكان يختلف بتجارتهِ الى مصر وهي الادم والعطر

ويلي ذلك روايات مختلفة عن كيفية فتح مصر وكلها لا تشبع من الوجهة التاريخية لاسيما وانها تخالف ما كتبهُ يوحنا اسقف نخو في تاريخهِ وكان في زمن الفتح وقد شاهد

حوادثهُ او شاهد الذين شاهدوها . ولما قُتل امير المؤمنين عُمر وخلفهُ امير المؤمنين عثمان ابن عفان وفد عليهِ عمرو بن العاص فسألهُ عزل عبدالله بن سعد بن ابي سرح العامري عن صعيد مصر وكان عُمر قد ولاهُ الصعيد قبل موتهِ فامتنع عثمان من ذلك وعقد لعبد الله بن سعد بن ابي سرح على مصر كلها فكانت ولاية عمرو على مصر صلاتها وخراجها منذ افتتحها الى ان صُرف عنها اربع سنين واشهراً

ولا شبهة في ان عمرو بن العاص فاتح مصر والشام كان من ابرع القواد الفاتحين لكن ذلك قلما ينطبق على ما روي من انهُ كان تاجراً يتّجر بالجلود والطيوب

أفلا يحتمل انهُ كان قبل الاسلام قائداً في جيوش الفرس التي كانت تحارب الروم فانهُ لما صُرف عن ولاية مصر وعاد الروم لمحاربتها رُدّ والياً على الاسكندرية ونقل الكندي في هذا الصدد انهُ رُدّ لمعرفتهِ بحرب الروم وطول ممارستهِ لها

عبد الله بن ابي سرح

قال الكندي انهُ مكث اميراً على مصر كل مدة عثمان بن عفان وغزا افريقية (تونس) وقتل ملكها جرجير فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل الف دينار وغزا الاسود حتى بلغ دمقلة فقاتلهم قتالاً شديداً ثم هادنهم ووفد على عثمان واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني فخرج عليهِ محمد بن حُذَيفة واخرجهُ من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان وجعل يكتب الكتب على السنة ازواج النبي ثم يأخذ الرواحل فيضمرها ثم يأخذ الرجال الذين يريد ان يبعث ذلك معهم فيجعلهم على ظهور البيوت فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر ثم يأمرهم ان يخرجوا الى طريق المدينة بمصر ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلاقوهم وقد امرهم اذا لقيهم الناس ان يقولوا ليس عندنا خبر الخبر في الكتب ثم يخرج محمد بن ابي حذيفة والناس كأنهُ يتلقى رسل ازواج النبي فاذا لقوهم قالوا لا خبر عندنا عليكم بالمسجد فيقرأ عليهم كتب ازواج النبي فيجتمع الناس في المسجد اجتماعاً ليس فيهِ تقصير ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول انا نشكو الى الله واليكم ما عُمل في الاسلام وما صُنع في الاسلام فيقوم اولئك الشيوخ في نواحي المسجد بالبكاء

وبلغ امير المؤمنين عثمان ما حدث فبعث سعد بن ابي وقاص الى اهل مصر ليصلح امرهم فبلغ ذلك بن ابي حُذَيفة فقال لم آلا ان ..... قد بعث اليكم سعد بن مالك ليقتل جماعتكم ويشتت كلمتكم فانفروا اليهِ فخرج منهم مئة او نحوها فلقوهُ بِرحلة بني سعد وقد ضرب فسطاطهُ وهو قائل فقلبوا عليهِ فسطاطهُ وشجّوهُ وسبوهُ فركب راحلتهُ وعاد راجلاً من حيث

جاء وقال لهم ضربكم الله بالذل والفرقة وشتّت امركم وجعل بأسكم بينكم

ثم ان محمد بن ابي حذيفة استقلّ بالامارة وبعث جيشاً الى الخليفة عثمان ليحاربهُ . وقُتل عثمان فعاد الجيش الى مصر فلما دخلوا المسجد صاحوا انّا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتلهُ . فلما رأى ذلك شيعة عثمان قاموا وعقدوا لمعاوية بن حُدَيج عليهم وبايعوهُ على الطلب بدم عثمان . وجاء معاوية بن ابي سفيان الى مصر مطالباً بدم عثمان فنزل سلمت من كورة عين شمس في شوال سنة ٣٦ فخرج ابن ابي حذيفة واهل مصر ليمنعوا معاوية واصحابهُ ان يدخلوها . فبعث اليهِ معاوية انّا لا نريد قتال احد انما جئنا نسأل القوَد بدم عثمان ادفعوا الينا قاتليهِ عبد الرحمن ابن عديس وكنانة بن بشر وهما رأسا القوم . فامتنع ابي حذيفة وقال لو طلبتَ منا جديّاً رطب السرة بدم عثمان ما دفعناهُ اليك . فقال معوية لابن ابي حُذيفة اجعل بيننا وبينكم رهناً فلا يكون بيننا وبينكم حرب . فقال ابن ابي حذيفة فاني ارضى بذلك . فاستخلف ابن ابي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت وخرج في الرهن هو وابن عديس وكنانة بن بشر وابو شمس بن ابرهة الصبّاح وغيرهم من قتلة عثمان فلما بلغوا الدّجم سجنهم معاوية بها وسار الى دمشق فهربوا من السجن الاّ ابو شمس بن ابرهة فقال لا ادخلهُ اسيراً واخرج منهُ آبقاً . وتبعهم صاحب فلسطين فقتلهم . وتبع ابن عديس رجل من الفرس فقال لهُ ابن عديس اتّقِ الله في دمي فاني بايعت النبي صلّى الله عليهِ وسلّم تحت الشجرة فقال لهُ الشجر في الصحراء كثير وقتلهُ . وكان قتل ابن ابي حذيفة وابن عديس وكنانة بن بشر ومَن كان معهم في الرهن في ذي الحجة سنة ست وثلاثين

وفي الاخبار المتقدمة عبَر كثيرة يصعب تعليلها وهي لماذا قُتل الخليفة عُمَر ولماذا تذرع ابن ابي حذيفة بما تقدم من الحيل حتى اغرى الناس بقتل الخليفة عثمان . وكيف استحلّ معاوية ان يأخذ القتلة رهائن ثم يقتلهم . اذلك كلهُ من الاخبار الصحيحة او ان الكندي والذين استند اليهم اخبارهُ وبعضهم من مشاهير الرواة والقضاة اخطأوا في ما نقلوهُ ورووهُ . وهناك امرٌ آخر حريٌّ بالذكر وهو ان المؤلفين الاقدمين كانوا يذكرون الخلفاء والامراء من غير القاب التعظيم والتبجيل فيقولون عمر وعثمان وفي النادر يقولون امير المؤمنين

قيس بن سعد بن عبادة الانصاري

ولي مصر من قبَل امير المؤمنين علي بن ابي طالب فدخلها مستهل ربيع الاول سنة ٣٧ واستمال الخارجية بخَرتا[1] وبعث اليهم اعطياتهم ووفد عليهِ وفدهم فاكرمهم واحسن اليهم وكان

(١) لا يزال اسمها كذلك وهو في مديرية الغربية ما بلي المحلة شرقاً

من ذوي الرأي والبأس. وكان معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص جاهدين ان يخرجاه من مصر فامتنع منهما بالدهاء والمكايدة فلم يقدرا ان يليا مصر حتى كاده معاوية من قبل علي فانه قال لاهل الشام لا تسبوا قيساً ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة تأتينا كتبه ونصيحته ألا ترون ما يفعل باخواتكم النازلين عنده بغربتنا يجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب يأتيه منهم. وجعل معاوية يكتب بذلك الى شيعته من اهل العراق فسمع بذلك جواسيس علي بالعراق فاوصلوه اليه محمد بن ابي بكر الصديق وعبد الله ابن جعفر فاتهم قيساً وبعث اليه يأمره بقتال اهل غربتنا وبغربتنا يومئذ عشرة آلاف. فابى قيس ان يقاتلهم وكتب الى علي انهم وجوه اهل مصر واشرافهم واهل الحفاظ وقد رضوا مني بان اؤمن سربهم واجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم. وقد علمت ان هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بامر أهون من الذي افعل بهم وهم اسود العرب منهم بسر بن ابي ارطاة ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج. فابى عليه الا قتالهم فابى قيس ان يقاتلهم وكتب الى علي ان كنت لتهمني فاعزلني وابعث غيري فبعث الاشتر

الاشتر النخعي

قال الكندي ثم وليها الاشتر مالك بن الحارث النخعي من قبل امير المؤمنين علي فسار اليها حتى نزل القلزم مستهل رجب سنة سبع وثلاثين فشرب شربة من عسل فمات فبلغ عمرو بن العاص ذلك فقال ان لله جنوداً من عسل. ولم يشر الكندي بكلمة الى عهد الامام علي الذي يقال انه اوصى به الاشتر النخعي حينما ارسله والياً الى مصر مع انه ذكر ما قيل في الاشتر من الرثاء وذكر ايضاً مصائح مثله قيلت لمحمد بن ابي بكر الصديق كما سيجيء وذلك مما يقوي ظن الذين ظنوا ان نهج البلاغة موضوع ومنسوب الى الامام علي

اما الرثاء فمنه قول سلمى ام الاسود بن الاسود النخعي

نَبّا بي مضجعي ونبا وسادي ... وعيني ما تهنهُ الى رُقادي
كأنّ الليلَ أوثقَ جانباهُ ... وأوسطهُ بأمراسٍ شدادِ
أبعدَ الاشترِ النخعيّ نرجو ... مكاثرةً ويقطعُ بطنَ وادِ
أكرُّ إذا الفوارسُ محجمات ... واضربُ حين تختلفُ الهوادي

وقال المثنى

ألا ما لنومِ العين اسودَ حالكُ ... وما لفؤادي زعزعتها الكادكُ
وما لهموم النفس شتّى شؤونها ... تظلُّ تناجيها النجومُ الشوابكُ

على مالكٍ قلبك ذو الليث مُولعاً اذا ذكرتْ في الغياتين المعارك
اذا ابتدر الخطيّ وانتدب الملا وكان غياثَ القوم نصرٌ مواشكُ
اذا ابتدرتْ يوماً قبائلُ مذحجٍ ونُودي بها أينَ المظفّرُ مالكُ
فلهفي عليهِ حين تخلفُ القنا ويرعشُ للموت الرجالُ الصعالكُ
ولهفي عليهِ يومَ دبّ لهُ الرّدى وديف لهُ سمٌّ منَ الموتِ حانكُ
فلو يارزوهُ يوم يبغون هلكهُ لكانوا بإذن الله ميتٌ وهالكُ
ولو مارسوهُ مارسوا ليثَ غابةٍ لهُ كالقي لا ترقدُ الليلَ فاتكُ
فقل لابنِ هندٍ لو منيتَ بمالكٍ وفي كفّهِ ماضي الضريبةِ باتكُ
لألفيتَ هنداً تشتكي علن الرّدى تنوح وتحبوها النساء العواتكُ

محمد بن ابي بكر الصديق

ثم وليها محمد بن ابي بكر الصديق من قبل امير المؤمنين علي وجمع لهُ صلاتها وخراجها فدخلها النصف من شهر رمضان سنة ٣٧ ولقيهُ قيس (بن سعد الانصاري) وقال لهُ احفظ عني ما اوصيك بهِ يدُم صلاح حالك . دع معاوية بن حديج وسلمة بن مخلّد وبسر بن ابي ارطاة ومن صوى اليهم على ما هم عليهِ تكشفهم عن رأيهم فان اتوك ولم يفعلوا فاقبلهم وان تخلفوا عليك فلا تطلبهم . وانظر هذا الحي من مضر فانت اولى بهم مني فألِن لهم جناحك وقرّب عليهم مكانك وارفع عنهم حجابك . وانظر هذا الحي من مذحج فدعهم وما غلبوا عليهِ يكفّوا عنك شأنهم . وانزل الناس من بعد على قدر منازلهم وان استطعت ان تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل فانهُ هذا لا ينقصك ولن تفعل انك والله ما علّمت لتظهر الخيلاء وتحب الرئاسة وتسارع الى ما هو ساقط عنك والله موفقك . فعمل محمد بخلاف ما اوصاهُ قيس . فكتب الى ابن حُدَيج والخارجة معهُ يدعوهم الى بيعتهِ فلم يجيبوهُ فبعث بابي عمرو ابن بُدَيل بن ورقاء الخزاعي الى دور الخارجة فهدمها ونهب اموالهم وسجن ذراريهم فبلغهم ذلك فنصبوا لهُ الحرب وهموا بالنهوض اليهِ فلما علم انهُ لا قوة لهُ بهم امسك عنهم وصالحهم على ان يسيّرهم الى معاوية وان ينصب لهم جسراً بقيوس[1] ليجوزوا عليهِ ولا يدخلوا القسطاط ففعلوا ولحقوا بمعاوية

(١) التي منها بوصا الغربي اسفل نخوا او تقيوس كانت قرب ابشاي الى الشمال الغربي من منوف على فرع النيل الغربي

وقال الكندي بعد ذلك « حدثنا حسن المديني قال حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر قال حدثني الليث عن عبد الكريم بن الحارث قال لما اجمع عليٌّ ومعاوية على الحَكَمَين اغفل عليٌّ ان يشترط على معاوية ان لا يقاتل اهل مصر فلما انصرف علي الى العراق بعث معاوية عمرو بن العاص في جيوش من اهل الشام الى مصر فاقتتلوا قتالاً شديداً فقال عمرو شهدتُ ثمانية عشر زحفاً براكاً فلم ارَ يوماً مثل المسنَّاة ثم انهزم اهل مصر فدخل عمرو باهل الشام الفسطاط وتغيَّب محمد بن ابي بكر في غافق فاواهُ رجل منهم فاقبل معاوية بن حُدَيْج في رهط ممَّن يعينهُ على مَن كان مشى في عثمان فطلب ابن ابي بكر فوجدت اخت الرجل الغافقي الذي كان اواهُ وكانت ضعيفة العقل فقالت اي شيء تلتمسون ابن ابي بكر ادلكم عليهِ ولا تقتحمن اخي فدلتهم عليهِ فقال احفظوني في ابي بكر فقال معاوية بن حُدَيْج قتلتُ من قومي ثمانين رجلاً في عثمان واتركك وانت صاحبهُ فقتلهُ ثم جعلهُ في جيفة حمار ميت فاحرقهُ بالنار »

وقد ايَّد الكندي هذه الرواية بروايات اخرى وذكر ما فعلتهُ ام حبيبة ابنة ابي سفيان حين جاءها الخبر بقتل ابن ابي بكر . وذلك وامثالهُ ممَّا يخالف ما يروى عن فضائل ذلك العصر . ولولا استشهاد الكندي بكثيرين من الثقات وورود ما ذكرهُ في تواريخ اخرى لارتبنا في صحتهِ . ولكن لا شبهة في ان ثلاثة من الخلفاء الاربعة الراشدين ماتوا قتلاً وقد قال الكندي ان معاوية بن ابي سفيان غدر بالهرمزان وقتلهم وقال ابن الاثير انهُ ارسل مَن دسَّ السم للاشتر النخعي فقتلهُ قبلما دخل مصر . وهذه الحوادث وامثالها تدلُّ دلالة قاطعة على ان اخلاق العرب لم تكن حينئذٍ كما تودُّ ان تكون او كما صوَّرها بعض الكتبة المتأخرين ولكن ذلك لا يثبت ان اخلاق الروم والفرس في ذلك العصر كانت ارقى من اخلاق العرب لان تواريخ تينك الدولتين مفعمة بالموبقات

وكانت وقعة المسنَّاة في صفر سنة ٣٨ وعليهِ مضى على فتح مصر الى مقتل محمد ابن ابي بكر ١٨ سنة او ١٩ سنة ولا بدَّ من ان يكون قد حدثت فيها حوادث كثيرة تتعلَّق بمعايش السكان ممَّا يدعو الى تقدمهم او تأخرهم لكن لم يفصِّلها الكندي ولا غيرهُ من المؤرخين الاقدمين في ما نعلم . وسنرى ما يقولهُ عن الولاة التالين وما حدث في ايامهم في هذا القطر